العلم الإلهي بين الغزالي وابن سينا

حمودي بن حمادي
أستاذ بجامعة نواكشوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الفلسفة

العلم الإلهي بين الغزالي وابن سينا

أخذ الغزالي على عاتقه مهمة دحض مذاهب فلاسفة الإسلام وبيان تهافت آرائهم. وقد أفرد لتحقيق ذلك الغرض كتابه "تهافت الفلاسفة" ولم يقف الغزالي في عدائه لفلاسفة الإسلام وخصوصا الفارابي وابن سينا عند حد دحض آرائهم وتسفيهها، بل إنه ذهب إلى ابعد من ذلك حين قام بتكفيرهم في ثلاث مسائل من بينها مسألة معرفة الله تعالى للكليات وعدم معرفته للجزئيات أو ما يعرف بالعلم الكلي عند ابن سينا.

ويحدد ابن سينا أبعاد هذا العلم من خلال كتابه التعليقات في أجزاء منه، فيذهب إلى أن الله تعالى "يعلم الأشياء التي لم توجد بعد على أنها لم توجد بعد، ويعرف أوقاتها وأزمنتها، وإذا وجدت تلك الأشياء لم يتجدد علمه بها... وهو يعرف كل شخص على وجه كلي معرفة بسيطة، ويعرف وقته الذي يحدث فيه على الوجه الكلي، فإنه يعرف أشخاص الزمان... ويعرف المدة التي تكون بين الكسوفين على الوجه الكلي، ويعرف أحوال شخص وأفعاله وتغيراته. واختلافات الأحوال به، وعدمه وأسباب عدمه على الوجه الكلي الذي لا يتغير البتة ولا يزول بزواله"[1].

وفي موضع آخر من نفس الكتاب يحدد حدودا أخرى لهذا العلم، فيرى أنه يعلم الأشياء جزئيها وكليها على ما هو عليه من جزئيته وكليته، وثباته وتغيره، وكونه وحدوثه، وعدمه وأسباب عدمه، ويعرف الأبديات على ما هي عليه من أبدية، والحادثات على ما هي عليه من حدوث، ويعرفها قبل حدوثها ومع حدوثها وبعد حدوثها بعللها وأسبابها الكلية، ولا يفيده حدوثها علما لم يكن، فكلها حاضرة له، فإن ذاته سببها، وهو يعرف الجزئيات والشخصيات بأسبابها وعللها على الوجه الذي لا يتغير به علمه ولا يبطل، وإن تغير الجزئيات والشخصيات فإنه لا يعرفه كما نعرفه نحن بإدراك الحس له وبالإشارة إليه، بل يعرفه بالأسباب الموجودة له المؤدية إليه التي تتناول هذا الجزئي وهذا الشخص بعينه من حيث يكون مشارا إليه متخيلا، فهو يعرف هذا الشخص بأسبابه وعلله المشخصة، وإن تغير الشخص وبطل يعرف هذا الشخص وأنه شخصي مشارا إليه وأنه فاسد ومتغير، ولا يفسد علمه ولا يتغير

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بفساده وتغيره، ويعرف جميع أحواله الحادثة له، ويعلم أنها تكون حادثة له، ولا يتغير علمه بها، لأنه يعرفها بأسبابها ويعرف عدمه بأسبابه المقومة له(2).

هذا ما يعرف عند ابن سينا بالعلم الكلي الذي يعقل كل شئ، فواجب الوجود إنما يعقل كل شئ على نحو كلي، ومع ذلك لايعزب عنه شئ شخصي، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وهذا من العجائب التي يحوج تصورها إلى لطف قريحة(3)، وبهذا استطاع ابن سينا أن يوفق باستعمال فكرة السببية بين الإله بالمعنى الفلسفي الذي يجهل العالم تقريبا وبين الإله بالمعنى الديني الذي يعلم آخر ذرة في العالم.

ولكن هذا القول من ابن سينا المتمثل في أن الله يعلم كل شئ ولكنه على نحو كلي، أثار كثيرا من الانتقادات خصوصا من طرف الغزالي الذي ذهب إلى حد تكفيره في هذه المسألة.

فقد زعم الغزالي أن مسألة العلم الإلهي من المسائل التي يجب تكفير الفلاسفة فيها لأنهم جعلوا علم الله مقصورا على الكليات دون الجزئيات، وقال: "وهذا أيضا كفر صريح، بل الحق أنه لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض"(4) ويمكن تلخيص نقد الغزالي لابن سينا في مسألة العلم الإلهي فيما يلي:

إن ابن سينا خالف في هذا العلم الإلهي غيره من الفلاسفة الذين ذهبوا إلى أن الله لا يعلم إلا نفسه احترازا من وجوب الكثرة، فكيف شاركهم في نفي الكثرة ثم باينهم في إثبات العلم بالغير؟ ولما استحى أن يقول الله تعالى لا يعلم شيئا أصلا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما يعلم نفسه فقط، وأما غيره- أي الإنسان- فيعرف نفسه ويعرف غيره، فيكون غيره أشرف منه في العلم، وترك هذا حياء من هذا المذهب واستنكافا منه، ثم لم يستحي من الإصرار على نفي الكثرة من كل وجه، وزعم أن علمه بنفسه وغيره، بل بجميع الأشياء هو ذاته من غير مريد وهو عين التناقض الذي استحى منه جميع الفلاسفة لظهور التناقض فيه في أول النظر(5).

يرى الغزالي أن القول بعلم كلي بعيد عن معرفة الجزئيات يؤدي إلى الإخلال بقاعدة من قواعد الشرع، فيقول: "هذه قاعدة اعتقدوها، واستأصلوا بها الشرائع بالكلية، إذ مضمونها أن زيدا مثلا لو أطاع الله تعالى أو عصاه، لم يكن الله عز وجل عالما بما يتجدد من أحواله لأنه لا يعرف زيدا بعينه بأنه شخص وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن، وإنما يعرف كفر الإنسان وإسلامه مطلقا كليا لا مخصوصا بالأشخاص"(6)، ثم يقدم بعد ذلك استجوابا يقول فيه: "بم تتكرون على من يقول: إن الله تعالى له علم واحد بوجود الكسوف مثلا في وقت معين، وذلك العلم قبل وجوده علم بأنه سيكون، وهو بعينه عند الوجود علم بأنه كائن، وهو بعينه عند الانجلاء

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

علم بالانقضاء، وأن هذه الاختلافات ترجع إلى إضافات لا توجب تبدلا في ذات العلم، فلا توجب تغيرا في ذات العالم، فإن ذلك ينزل منزلة الإضافة المحضة، فإن الشخص الواحد يكون على يمينك ثم يرجع إلى قدامك ثم إلى شمالك، فتتعاقب عليك الإضافات، والمتغير ذلك الشخص المتنقل دونك... فإنك تسلم أنه يعلم الأشياء بعلم واحد في الأزل والأبد والحال لا يتغير"(7).

وإذا كان القول بإثبات العلم بالكون الآن والانقضاء بعده يعتبر تغيرا، فيتساءل الغزالي عن مصدر معرفة ذلك ويقول: "لو خلق الله تعالى لنا علما بقدوم زيد غدا عند طلوع الشمس، وأدام هذا العلم، ولم يخلق لنا علما آخر ولا غفلة عن هذا العلم، لكنا عند طلوع الشمس عالمون بمجرد العلم السابق بقدومه الآن، وبعده فإنه قدم من قبل، ذلك العلم الواحد الباقي كافيا في الإحاطة بهذه الأحوال الثلاثة"(8).

إلا أننا نرى أن قصر ابن سينا للعلم الإلهي على العلم بالكليات لا يخفى ما يتضمنه ذلك من القول بأنه تعالى يجهل الجزئيات في أوقات حصولها. وابن سينا قد تورط في هذا الرأي نتيجة محاولة التوفيق بين الفلسفة التي قد تصف الله تارة بالجهل المطلق بنفسه وبغيره، وطورا آخر تصفه بالعلم القاصر على ذاته دون غيره، وبين الدين الذي يثبت لله تعالى العلم الشامل لذاته ولجميع الموجودات.

ولكن كيف فسر ابن سينا معرفة الله للجزئيات بطريقة كلية؟

وهل وقف عند مجرد العلم بالكليات فقط أم أنه امتد إلى معرفة الجزئيات على وجه ما؟

أ) إدراك الجزئيات بطريقة كلية

سبق أن ذكرنا أن الله عند ابن سينا يعرف الموجودات كلها على وجه كلي ذلك أن هذه الموجودات واجبة عنده، فإنه يعرفها كلها، إذ كلها من لوازمه ولوازم لوازمه، وإذا علم أنه كلما كان كذا- اعني جزئيا- كان كذا- أعني جزئيا آخر. وتكون هذه الجزئيات مطابقة لهذا الحكم، يكون قد عرف الجزئيات على الوجه الكلي الذي لا يتغير، الذي يمكن أن يتناول أي جزئي كان لا هذا المشار إليه. "والجزئيات قد تعرف على وجه كلي ما لم يكن مشارا إليها"(9).

ويعتمد ابن سينا على فكرة العلية في توضيحه لكيفية معرفة الله للجزئيات بطريقة كلية، وذلك أن الله "يعلم الأسباب ومطابقتها، فيعلم ضرورة ما تتأدى إليه... فيكون مدركا للأمور الجزئية من حيث هي كلية"(10) أي بمعرفته للعلة يدرك المعلول، فكلما أدرك علة من حيث هي علة، أدرك المعلول، ولو علمت الأسباب الموجودة من غير أن يعزب منها شئ لعلمت مصادماتها وعلمت ما تنتهي إليه، ولما أحيط في هذا العالم العلوي بكل الأسباب الأولى علما سواء كانت كلية أو كانت

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

جزئية لتدرك كلية"(11). إن معرفته تعالى للأسباب يعرف المسببات، وبمعرفته للأسباب التي تؤدي إلى إحداث هذا العالم يكون بالضرورة عالما بتلك الأحداث نفسها من حيث هي مسببة أعلى من حيث هي خاضعة للقوانين عامة، وهو في هذا يتفق مع رأي أرسطو الذي ذهب إلى أنه لا سبيل إلى المعرفة الحقة في كل علم إلا بالوقوف على الأسباب.

وإذا كان ابن سينا يقول بأن الجزئيات تعرف بطريقة كلية إلا أن له بعض العبارات التي قد توحي بأن الله علمه له معرفة بالجزئيات المشخصة مثل قوله: "وتعلم من هذا أن الأول من ذاته كيف يعلم كل شئ لأنه مبدأ شئ أو أشياء حالها وحركتها كذا، وما ينتج عنها كذا إلى التفصيل الذي لا تفصيل بعده، ثم على الترتيب الذي يلزم ذلك التفصيل لزوم التعدية والتالية، فتكون هذه الأشياء مفاتيح الغيب"(12). فهذا القول السابق قد يفسر منه أن الله يعلم الجزئيات، ولكن مع إدماجه مع غيره من أقوال ابن سينا الأخرى ننتهي إلى أنه يقول بعلم كلي وهو ما قال به صراحة في كثير من أقواله.

ونستطيع إثبات صحة هذا الرأي عن طريق تفرقة ابن سينا بين إدراك الجزئيات بطريقة كلية وهو إدراك الله لها، وبين إدراك الجزئيات بطريقة جزئية وهو إدراك الإنسان لها.

ذلك أن إدراكنا يكون من خلال الزمان في حين أن إدراك الأول به قبل الزمان، وليس فيه. ويشرح ذلك بقوله: "أما كيفية إدراك الجزئي كليا، والجزئي جزئيا، هو أنك تعلم أنه، كيف يكون كل كسوف، وفي أي مدة يكون، وفي مدة كذا يكون، وأنه بعد أي كسوف يكون؟ ولو نصبت آلة تتحرك فيكون عنها أمور، لعلمت أن لكل واحد منها يكون، وأنه بعد أية يكون وكنت دائما فيه على حكم واحد لا يتغير، وإذا علمت مع علمك الأول أمر الآن فقد لزمك التغير، فإنك إذا كنت تحكم إن كذا معدوم الآن، فذلك حكم أو أمر في ذاتك ليس ذلك نفس عدم ذلك حتى يكون حالة إضافية، ولا نفس وجوده عندما تعلمه موجودا، بل هو أمر متقرر في نفسك، فإذا علمت بعد ذلك أنه موجود لم يكن، إنما زالت إضافة فقط، بل أمر كان فيك مع الإضافة فاستحلت وتغيرت والحق لا يتغير(13).

إن ابن سينا يجتهد في أن لا يجعل علم الله عرضة للتغير والفساد بأن يجعله زمانيا أو مستفادا من الحس- ومن وجود الموجودات، فمعلومه من ذاته وذاته ثابتة واحدة لا تتغير.

إن ما يثبته ابن سينا لله تعالى هو إدراك العاقل للمعقول، وهذا الإدراك العقلي يرتبط بالإدراك الكلي فقط دون الجزئي المتغير، ولكن هذا القول من ابن سينا كان

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يصح أن يقال على العلم الإنساني إلا انه غير صحيح على العلم الإلهي، وغير مستساغ له، فهو لا يكتفي بأن يصفه تعالى بالجهل بالأمور الجزئية، بل إنه يشير إلى أن حظه من الجهل في بعض الأحوال أوفى من حظ البشر، فيقول: "ثم ربما وقع ذلك الكسوف ولم يكن عند العاقل الأول إحاطة بأنه وقع أو لم يقع"(14).

ويمكن تفسير مسلك ابن سينا بأمرين:

أولهما: أنه معتقد بما يقول، ولكنه تحاشى التصريح به خوفا مما يوجه إليه من انتقادات.

ثانيهما: أنه قد شعر بضعف مذهبه، وأنه متردد بين الشك واليقين. فالذي يفرق بين إدراك الجزئي بطريقة كلية أو بطريقة جزئية هو الخلو من الزمان، لذا يرفض أن يدخل علم الأول الزمان بأقسامه مثل الآن والماضي والمستقبل، وسبب رفضه يمكن أن نحدده في قوله إن تغير المعلومات من خلال الزمان سيؤدي إلى تغير في الإضافة، لأنه إذا كان "علمه زمانيا أعني زمانيا مشارا إليه، حتى يعلم أن الشيء الفلاني في هذا الوقت غير موجود، وغدا يكون موجودا كان علمه متغيرا"(15). لأن العلم الزماني هو أن تدرك ذلك المعلوم في زمان، فالعلم بالإشارة يتغير بتغير الزمان لأنه علم بمعرفة الجزئي المشار عليه، وهذا الجزئي متغير مثل قولنا: سقراط هو ابن هذا الإنسان المشار إليه، أو أن نقول هذا الكسوف المشار إليه، أما إذا قلنا أن الكسوف هو الذي يحدث بعد أن تتوافى أسباب ما في حالة معينة، فتكون هذه معرفة كلية لشيء جزئي، لأنها معرفة بالأسباب والقوانين، فهو مثل عالم الفلك، فإنه يتوصل إلى إدراك الكسوفات الجزئية لإحاطته بأسبابها، وإحاطته بكلما في السماء والعلم بها علما كليا، فإذا أحيط علما بكل الأسباب انتقل إلى كل المسببات، والعلم الإلهي عند ابن سينا من هذا النوع لأنه علم بالأسباب والقوانين، لذا فيجب أن يكون علمه بالجزئيات على الوجه المقدس العالي عن الزمان والدهر(16).

ب) من يختص بالعلم الجزئي

إذا كان الله عند ابن سينا لا يعلم إلا ذاته والعقل الأول وهو الذي صدر عنه، كما هو في نظرية الفيض، أما ماعدا العقل الأول من الموجودات فهو يعلمها بواسطة كما أوجدها بواسطة، فما هي هذه الواسطة؟

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يذهب ابن سينا إلى أن الملائكة هي التي تقوم بهذه الوظيفة فيقول إن بعض الملائكة يحيط بالجزئيات علما على أنها جزئية وجاز أن يفيض منها على الأنفس في المنام والوحي لإحاطة تلك المبادئ بالحاضرات في الوجود كلها، والواجب من ذلك أن تنتهي الإحاطة بمصادماتها وبما تنتهي إليه مصادماتها(17).

ومن الواضح أن أرسطو لم يعرف مثل هذه الأفكار، وهي أفكار دينية أدخلها ابن سينا في صميم الفلسفة، لأنها تخدم فلسفته المشرقية ذات الطابع الهرمسي. فابن سينا يعين للملائكة وظيفة هي من اختصاص النفس التي تصدر في المرتبة الثانية بعد العقل في فلسفة الإفلاطونية الجديدة، وهي التي تأتي في ترتيب الصدور عن الواحد بعد العقل، ويسميهم ابن سينا باسم الملائكة الذين يحملون العرش والذين يدبرون كلما يتكون وكلما يفسد ويتولون طبائع الموجودات في عالمنا هذا، فهم الذين يعلمون بالجزئيات ويتولون أمر العناية والاهتمام بها.

فالعقول المفارقة لا تدرك الأمور إلا كلية ولو كانت جزئية، ولكن النفوس الفلكية تدركها كلية وجزئية(18). وقد حكى الغزالي وجهة نظر ابن سينا في سبب إحاطة الملائكة هذه فقال: "فإن المانع من إدراك الأشياء كلها التعلق بالمادة والاشتغال بها، ونفس الآدمي مشغول بتدبير المادة أي البدن، فإذا انقطع شغله بالموت ولم يكن قد تدنس بالشهوات البدنية والصفات الرديئة المتعدية إليه من الأمور الطبيعية، انكشف له حقائق المعلومات كلها، ولذلك قضى أن الملائكة كلهم يعرفون جميع المعقولات ولا يشذ عنهم عقول مجردة لا في مادة"(19).

ويضيف ابن سينا إلى بعض النفوس الإنسانية علما بالكلي بالإضافة إلى العلم الجزئي، فيرى أنه هناك بعض النفوس البشرية التي تتفاوت بالعلم والشرف والكمال، فإنه ربما ظهرت نفس من النفوس في هذا العالم نبوية كانت أو غيرها، وبلغت من الكمال في العلم والأعمال بالفطرة أو الاكتساب حتى تصير مضاهية للعقل الفعال وإن كانت دونه في الشرف والعلم والرتبة العقلية، لأنه علة وهي معلولة والعلة أشرف من المعلول(20). فلا يسوي ابن سينا بين علم الله وعلم العقول المفارقة في الرتبة، ذلك أن إدراك الأول للأشياء من ذاته في ذاته هو أفضل أنحاء كون الشيء مدركا ومدركا، ويتلوه إدراك الجواهر العقلية للأول بإشراف الأول، ولما بعده من ذاته، وبعدهما الإدراكات النفسانية التي هي نقش ورسم عند طبائع عقلية متبددة المبادئ والمناسب(21).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

فالعلم عند ابن سينا يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل:

أولهما: علم الأول، فإن علمه بذاته وبغيره من ذاته، لما مرّ من أن علمه بذاته هو علمه بغيره.

ثانيهما: علم العقول المفارقة بعللها ومعلولاتها، لكن علمها بعللها ليس لها من ذواتها.

ثالثها: علم النفوس، فإنه حادث من فيض العقول بحسب استعدادات مختلفة.

ننتهي من هذا إلى أن علم الله بالموجودات هو علم كلي، أما الجزئيات فيختص بالعلم بها نفوس الأفلاك وما هو دونه، فالأول لا يهتم بالجزئيات، وأمر هذه راجع إلى العقول المفارقة وخاصة العقل العاشر الذي يدبر ما تحت فلك القمر.

والخلاصة أن الغزالي إذا كان قد زعم أن ابن سينا لم يقل إلا بمعرفة كلية فقط ونقده على هذا الأساس، إلا أننا من جانبنا ومن جانب النصوص التي قرأناها لابن سينا نرى غير ذلك، لأن لله علم بالجزئيات فيما يختص بالثابت غير المتغير مثل أوائل الموجودات، كالعقول المفارقة والأفلاك السماوية إنما هو علم بأشخاصها وأفرادها، فإن كان هذا الشخص ما هو في العقل شخصي وواحد في نوعه كالشمس مثلا، فإنه يعرفه بطريقة جزئية، وإن كان النوع منتشرا في أشخاص كثيرة عرف النوع فقط وليس الأشخاص طالما أن النوع وأفراده المشخصة شئ واحد، لذا فهو يعرفها من جهة النوع الذي هو عللها وأسبابها العلية التي لا تتغير، والمقصود بالمعرفة الكلية هي معرفة الموجودات الفاسدة التي يتألف منها عالمنا الأرضي، فعلم الله بها علم كلي، أي بأنواعها أولا ثم بتوسط تلك الأنواع بأشخاصها، فالله يعلم علما بالجزئيات لكل ما هو ثابت لا يتغير كعقول الأفلاك، ولا خطر في ذلك لأن هذه العقول لا يعتريها أحوال، ولايتوارى عليها شؤون، فهي ثابتة على حالة واحدة، والعلم بها يكون علما ثابتا، أما ما يكون من هذه الجزئيات متغيرا، فالله يعلمه بوجه كلي، فالبارئ يعلم الموجودات كلها، يعلم منها ما لا يتغير علما جزئيا ويعلم منها ما يتغير علما كليا.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الهوامش

1) ابن سينا: التعليقات على حواشي كتاب النفس لأرسطو طاليس، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص:66.
2) نفس المصدر، ص:81.
3) ابن سينا: النجاة، تحقيق ماجد فخري، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت الطبعة الأولى، 1985، ص:283.
4) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال: تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، مطبعة الجامعة السورية، ط. خامسة، 1956، ص:79.
5) الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة 1966م، ص: 176-177.
6) ن.م، ص:206-207.
7) ن.م، ص:211.
8) ن.م، ص:212.
9) ابن سينا، التعليقات، م، س، ص:14.
10) ابن سينا، النجاة، م، س، ص:284.
11) ابن سينا: الهداية، تحقيق الدكتور محمد عبده، المكتبة الحديثة، القاهرة الطبعة الثانية 1974م، ص:247.
12) ابن سينا: النجاة، م، س، ص:286.
13) ابن سينا: الهداية، م، س، ص:267-269.
14) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات: تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص:287، القسم الثالث.
15) ابن سينا: التعليقات، م، س، ص:13.
16) ابن سينا: الإشارات، م، س، ص:296 القسم الثالث.
17) ابن سينا: الهداية، م، س، ص:246.
18) ابن سينا: النجاة، م، س، ص:300.
19) الغزالي: تهافت الفلاسفة، م، س، ص:180.
20) ابن سينا: رسالة في الزيارة، ضمن مجموعة (جامع البدائع)، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة 1917، ص:35.
21) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، م، س، ص:279-280، الجزء الثالث.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner